

تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

بَصِيرٌ ﴾

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ، ما اسمع ما تقول ، فانزل الله ، عز وجل : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ إلى آخر الآية. وهكذا رواه البخارى. وأخرجه النسائى ، وابن ماجه ، وابن جرير. وفى رواية: أنها قالت: تبارك الذى أوعى سمعه كل شىء. ، إنى لاسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول : يا رسول الله ، أكل شبابى ، وتثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنّى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك. قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ (١). وقال عروة: وكان أوس امراً به لم ، فكان إذا أخذه لمه واشتد به يظهر من امراته ، وإذا ذهب لم يقل شيئاً . فأتت رسول الله تستفتيه فى ذلك ، وتشتكى إلى الله ، فانزل الله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية .

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ عَلِيمٌ ﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ نُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

روى الإمام أحمد عن خولة بنت ثعلبة قالت : فى - والله - وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة « المجادلة » ، قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل على يوماً فراجمته بشىء فغضب فقال: أنت على كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ، ثم دخل على فإذا هو يريدنى عن نفسى. قالت : قلت : كلا ، والذى نفس خويلة بيده ، لا تخلص إلى وقد قلت ما قلت ، حتى يحكم الله ورسوله فىنا بحكمه . قالت: فواتبى وامتنعت منه ، فغلبت بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فالتقت عني ، قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتى ، فاستعرت منها ثياباً ، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ ، فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٠) من سورة الرعد .

منه ، وجمعت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : « يا خويلة ، ابن عمك شيخ كبير ، فاتقى الله فيه » . قالت : فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سرى عنه ، فقال لي : « يا خويلة ، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك » . ثم قرأ علي : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِعَ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، قالت : فقال لي رسول الله ﷺ : « مره فليعتق رقبة » . قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق . قال : « فليصم شهرين متتابعين » . قالت : فقلت : والله إنه شيخ كبير ، ما به من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر » . قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما ذاك عنده . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « فإننا سنعيته بعرقي من تمر » . قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا ساعينه بعرقي آخر ، قال : « فقد أصبت وأحسنت ، فاذهي فتصدق به عنه ، ثم استوصي بابن عمك خيراً » . قالت : ففعلت . ورواه أبو داود (١) وعنده : خولة بنت ثعلبة ، ويقال فيها : خولة بنت مالك بن ثعلبة . وقد تصغر فيقال : خويلة . ولا منافاة بين هذه الأقوال ، فالأمر فيها قريب ، والله أعلم .

هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة ، فأما حديث سلمة بن صخر فليس فيه أنه كان سبب النزول ، ولكن أمر بما أنزل الله في هذه السورة ، من العتق أو الصيام ، أو الإطعام ، كما روى الإمام أحمد عن سلمة بن صخر الأنصاري قال : كنت امرأة قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري ، فلما دخل رمضان تظهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان ، قرأاً من أن أصيب في ليلتي شيئاً فأتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار ، وأنا لا أقدر أن أنزع ، فبينما هي تخدمني من الليل إذ تكشف لي منها شيء ، فوثبت عليها ، فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري وقلت : انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأخبره بأمرى . فقالوا : لا ، والله لا نفع ؛ نتخوف أن ينزل فينا - أو يقول فينا رسول الله ﷺ - مقالة يبقى علينا عارها ، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك . قال : فخرجت حتى أتيت النبي ﷺ ، فأخبرته خبري . فقال لي : « أنت بذاك » . فقلت : أنا بذاك . فقال : « أنت بذاك » . فقلت : أنا بذاك . قال : « أنت بذاك » قلت : نعم ، ها أناذا فامض في حكم الله تعالى ، فإني صابر له . قال : « اعتق رقبة » . قال : فضربت صفحة رقبتي بيدي وقلت : لا ، والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها . قال : « فصم شهرين » . قلت : يا رسول الله ، وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام ؟ قال : « فتصدق » . فقلت : والذي بعثك بالحق ، لقد بنتا ليلتنا هذه وحشني ما لنا عشاء . قال : « اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك ، فاطعم عنك منها وسقاً من تمر ستين مسكيناً ، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك » . قال : فرجعت إلى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة ، قد أمر لي بصدقتم ، فادفعوها إلي . فدفعوها إلي . وهكذا رواه أبو داود ، وابن ماجه ، واختصره الترمذي وحسنه (٢) . وظاهر السياق : أن هذه القصة كانت بعد قصة أوس بن الصامت وزوجته خويلة بنت ثعلبة ، كما دل عليه سياق تلك وهذه بعد التأمل .

(١) المسند (٤١٠/٦) وأبو داود (٢٢١٤ ، ٢٢١٥) ، وقال الألباني : « حسن دون قوله : « والعرق » .

(٢) المسند (٣٧/٤) وأبو داود (٢٢١٣) وابن ماجه (٢٠٢) والترمذي (٣٢٩٩) .

فقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا تظاهر أحد من امراته قال لها : أنت على كظهر أمي ، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً ، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم . هكذا قال غير واحد من السلف . وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية بقوله : ﴿ مِنْكُمْ ﴾ فالخطاب للمؤمنين ، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، واستدل الجمهور عليه بقوله : ﴿ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ على أن الأمة لا تظاهر منها ، ولا تدخل في هذا الخطاب .

وقوله : ﴿ مَا مِنْ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْتَهُمْ ﴾ أى : لا تصير المرأة بقول الرجل : «أنت على كأمي» أو «مثل أمي» أو «كظهر أمي» ، وما أشبه ذلك ، لا تصير أمه بذلك ، إنما أمه التي ولدته ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أى : كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ أى : عما كان منكم في حال الجاهلية . وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان ، ولم يقصد إليه المتكلم .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ : اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ فقال بعض الناس : العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره ، وهذا القول باطل ، وهو اختيار ابن حزم . وقال الشافعي : هو أن يمسكها بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق . وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع لو يعزم عليه فلا يحل له حتى يكفر بهذه الكفارة .

وقد حكى عن مالك : أنه العزم على الجماع والإمساك ، وعنه أنه الجماع . وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ، ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى تظاهر الرجل من امراته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة . وإليه ذهب أصحابه ، والليث بن سعد . عن سعيد بن جبیر : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ يعنى : يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرموه على أنفسهم . وقال الحسن البصرى : يعنى العشيان في الفرج . وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر . وقال ابن عباس : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ﴾ والنس : النكاح . وكذا قال عطاء ، والزهرى ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان . وقال الزهرى : ليس له أن يقبلها ولا يمساها حتى يكفر . وقد روى أهل السنن عن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إنى ظاهرت من امرأتى فوقعت عليها قيل أن أكفر . فقال : « ما حملك على هذا يرحمك الله ؟ » . قال : رأيت خلخالها في ضوء القمر . قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله ، عز وجل » . وقال الترمذى : حسن غريب صحيح (١) . ورواه أبو داود والنسائي من حديث عكرمة مرسلاً . قال النسائي : وهو أولى بالصواب (٢) .

وقوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أى : فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا ، فهاهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان ، وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان ، فحمل الشافعي ما أطا . ما قيد هناك لاتحاد الموجب ، وهو عتق الرقبة ، واعتضد في ذلك بما رواه عن مالك بسنده ، عن معاوية بن الحكم

(١) أبو داود (٢٢٣) والترمذى (١٩٩٠) .

(٢) أبو داود (٢٢١ ، ٢٢٢) والنسائي (٣٤٥٩) ، وصححه الألبانى .

الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَيَنْتَحِبُونَ بِالْإِنَّمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَوَّكُوكَ بِمَا لَمْ يُحْكَمْ بِهِنَّ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبْتُمْ أَنَّهُمْ لَيَضَلَّوْنَهَا فَيُنْسَ الْمَصِيرَ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَجُوا بِالْإِنَّمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَسْجُرُوا بِالزَّيْرِ وَالْقَوَى وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

قال مجاهد : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ﴾ قال: اليهود . وكذا قال مقاتل بن حيان ، وراد : كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مصادمة ، وكانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم ، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله - أو : بما يكره المؤمن - فإذا رأى المؤمن ذلك خشيم ، فترك طريقه عليهم . فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى ، فلم يتنهدوا وعاودوا إلى النجوى ، فأنزل الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ ﴾ . وقوله : ﴿ وَيَتَّجِرُونَ بِالْإِنَّمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ أى : يتحدثون فيما بينهم بالإثم ، وهو ما يختص بهم ، والعدوان ، وهو ما يتعلق بغيرهم ، ومنه معصية الرسول ومخالفته ، يصرون عليها ويتواصون بها .

وقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَوَّكُوكَ بِمَا لَمْ يُحْكَمْ بِهِنَّ اللَّهُ ﴾ : عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم . فقالت عائشة : وعليكم السام . قالت : فقال رسول الله ﷺ : يا عائشة ، إن الله لا يحب الفحش ولا التفضح . قلت : ألا تسمعهم يقولون : السام عليك ؟ فقال رسول الله : « أو ما سمعت أقول : وعليكم ؟ » . فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَوَّكُوكَ بِمَا لَمْ يُحْكَمْ بِهِنَّ اللَّهُ ﴾ (١) . وفي رواية في الصحيح أنها قالت لهم : عليكم السام والذام واللعنة . وأن رسول الله ﷺ قال : « إنه يستجاب لنا فيه ، ولا يستجاب لهم فينا » (٢) . وروى ابن جرير : عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه ، إذ أتى عليهم يهودى فسلم عليهم ، فردوا عليه ، فقال نبي الله ﷺ : « هل تدرون ما قال ؟ » . قالوا : سلم يا رسول الله . قال : « بل قال : سام عليكم ، أى : تسامون دينكم » . قال رسول الله : « ردوه » . فردوه عليه . فقال نبي الله : « أقلت : سام عليكم ؟ » . قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : « إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا : عليك » أى : عليك ما قلت . وأصل حديث أنس مخرج في الصحيح ، وهذا الحديث في الصحيح عن عائشة ، بنحوه (٣) .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أى : يفعلون هذا ، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام ، وإنما هو شتم في الباطن ، ومع هذا يقولون في أنفسهم : لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن ؛ لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لاوشك أن يعاجلنا الله

(١) البخارى (٦٠٣٠) ومسلم (٢١٦٦/١٢) .

(١١) مسلم (٢١٦٥/١٠) .

(٣) ابن جرير في التفسير (١١/٢٧) ومسلم (٦/٢١٦٣) .

بالمعقوبة في الدنيا، فقال الله تعالى: ﴿حَسَبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿بَصَلَتْهَا فَبَسَّ الْمَصِيرُ﴾ . وروى الإمام أحمد : عن عبد الله بن عمرو ، أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ : سام عليك ، ثم يقولون في أنفسهم : ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ ؟ ، فنزلت هذه الآية : ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَتَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسَبَهُمْ جَهَنَّمُ بَصَلَتْهَا فَبَسَّ الْمَصِيرُ﴾ إسناده حسن ولم يخرجوه (١) .

ثم قال الله مؤدياً عبادة المؤمنين ألا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَقَابَلْتُمْ فَلَ تَتَّجِرُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَغْضَبِ الرَّسُولِ﴾ أي : كما يتناجى به الجهيلة من كفره أهل الكتاب ومن مآلهم على ضلالهم من المنافقين ، ﴿وَتَقَابَرُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي : فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم ، وسيجزيك بها . وروى الإمام أحمد : عن صفوان بن مُحَرَّرٍ قال : كنت أخذاً بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : اتعرف ذنب كذا ؟ اتعرف ذنب كذا ؟ اتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين » . أخرجاه في الصحيحين (٢) .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي : إنما النجوى - وهي المسارة - حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ، ﴿لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي : ليسوءهم ، وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ، ومن أحسن من ذلك شيئاً فليستعمل بالله وليتوكل على الله ، فإنه لا يضره شيء بإذن الله . وقد وردت السنة بالنهي عن التناجى حيث يكون في ذلك تاذ على مؤمن ، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه» . أخرجاه (٣) . وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ؛ فإن ذلك يحزنه» . انفراد بإخراجه مسلم (٤) .

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَفْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

يقول تعالى مؤدياً عبادة المؤمنين ، وأمرأ لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس : ﴿يَا أَيُّهَا

(١) المسند (٦٥٨٩) وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» .

(٢) المسند (٥٤٣٦) والبخارى (٤٦٨٥) ومسلم (٥٢/٢٧٦٨) .

(٣) المسند (٤٠٩٣) والبخارى (٦٢٩٠) ومسلم (٣٧/٢١٨٤) .

(٤) مسلم (٣٦/٢١٨٣) .

الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسخوا في المجالس ﴿ وقرئ : « في المجلس » ، ﴿ فافسحوا بفسح الله لكم ﴾ وذلك ان الجزء من جنس العمل ، كما جاء في الحديث الصحيح : « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة »^(١) وفي الحديث الآخر : « ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »^(٢) . ولهذا أشباه كثيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ فافسحوا بفسح الله لكم ﴾ .

قال قتادة : نزلت هذه الآية في مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا راوا أحدهم مقبلاً ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض . وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » . وأخرجاه في الصحيحين^(٣) .

وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث : « قوموا إلى سيديكم »^(٤) . ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار »^(٥) . ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم في محل ولايته، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين : « قوموا إلى سيديكم » . وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه ، والله أعلم . فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم . وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكان إذا جاء لا يقومون له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . وفي الحديث المروي في السنن : أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، وكان الصحابة يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق يجلسه عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وبين يديه غالباً عثمان وعلى ؛ لأنهما كانا ممن يكتب الوحي ، وكان يأمرهم بذلك ، كما رواه مسلم عن أبي مسعود ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « ليلى منكم أولو الأحلام والنهي » ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم^(٦) . وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله ، صلوات الله وسلامه عليه . وروى الإمام أحمد : عن أبي مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : « استوا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليليني منكم أولو الأحلام والنهي ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » . قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافاً . وكذا رواه مسلم وأهل السنن ، إلا الترمذي^(٧) .

وإذا كان هذا أمرهم لهم في الصلاة أن يليه العقلاء ثم العلماء ، فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة . ولهذا كان أبي بن كعب - سيد القراء - إذا انتهى إلى الصف الأول انتزع منه رجلاً يكون من أفناء الناس ، ويدخل هو في الصف المقدم ، ويحتج بهذا الحديث : « ليلى منكم أولو الأحلام والنهي » . وأما عبد الله بن عمر فكان لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه ، عملاً

(١) البخارى (٤٥٠) ومسلم (٥٣٣/٢٤) . (٢) مسلم (٢٦٩٩/٣٨) .

(٣) المسند (٤٧٣٥) والبخارى (٦٢٦٩) ، ومسلم (٢١٧٧/٢٨) .

(٤) البخارى (٣٠٤٣) ومسلم (١٧٦٨/٦٤) .

(٥) أبو داود (٥٢٢٩) والترمذى (٢٧٦٦) وقال : « إسناده حسن » .

(٦) مسلم (٤٣٢/١٢٢) .

(٧) المسند (١٢٢/٤) ومسلم (٤٣٢/١٢٢) وأبو داود (٦٧٤) وابن ماجه (٩٧٦) .

بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذى أورده . ولتقتصر على هذا المقدار من الامموزج المتعلق بهذه الآية ، وإلا فبسطه يحتاج إلى غير هذا الموضع ، وفى الحديث الصحيح : بينا رسول الله ﷺ جالس ، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأما أحدهم فوجد فرجة فى الحلقة فدخل فيها ، وأما الآخر فجلس وراء الناس ، وأدبر الثالث ذاهباً . فقال رسول الله ﷺ : « إلا أنبئكم بخير الثلاثة ، أما الأول فأوى إلى الله فأواه الله ، وأما الثانى فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه » (١) . وروى الإمام أحمد : عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنها » . ورواه أبو داود والترمذى . وحسنه الترمذى (٢) .

وقوله : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » أى : لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لآخيه إذا أقبل ، أو إذا أمر بالخروج فخرج ، أن يكون ذلك نقصاً فى حقه ، بل هو رفعة ومزية عند الله ، والله تعالى لا يضيع ذلك له ، بل يجزيه بها فى الدنيا والآخرة ، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ، ونشر ذكره ، ونشر ذكره ، ولهذا قال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » أى : خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه . وروى الإمام أحمد عن أبى الطفيل عامر بن واثلة ، أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمر استعمله على مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادى ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أيزى . قال : وما ابن أيزى ؟ فقال : رجل من مواليها . فقال عمر : استخلفت عليهم مولى ؟ . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاض . فقال عمر : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع به آخرين » . وهكذا رواه مسلم (٣) .

﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرٌ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَتٌ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقْبِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يتاجى رسول الله ﷺ ، أى : يساره فيما بينه وبينه ، أن يقدم بين يدى ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤمله لأن يصلح لهذا المقام ، ولهذا قال : « ذلك خير لكم وأطهر » . ثم قال : « فإن لم تجدوا » أى : إلا من عجز عن ذلك لفقره « فإن الله غفور رحيم » فما أمر بها إلا من قدر عليها .

ثم قال : « أشفقتم أن تقدموا بين يدى جنودكم صدقات » أى : أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول « فإذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقبموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خير بما تعملون » فنسخ وجوب ذلك عنهم . وقد قيل : إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى

(١) البخارى (٦٦) ومسلم (٢١٧٦ / ٢٦) .

(٢) المسند (٦٩٩٩) وقال الشيخ شاکر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (٤٨٤٥) ، والترمذى (٢٧٥٢) .

(٣) المسند (٢٣٢) ومسلم (٢٦٩ / ٨١٧) .

على بن أبي طالب ، رضى الله عنه . قال مجاهد : نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى تصدقوا ، فلم يناجِه إلا على بن أبي طالب ، قدم ديناراً صدقة تصدق به . ثم ناجى النبي ﷺ فسأله عن عشر خصال ، ثم أنزلت الرخصة . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ﴾ إلى ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ : كان المسلمون يقدمون بين يدى النجوى صدقة ، فلما نزلت الزكاة نسخ هذا . وقال قتادة ومقاتل بن حيان : سأل الناس رسول الله ﷺ ، حتى أحفوه بالمسألة ، فقطعهم الله بهذه الآية ، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبي الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة ، فاشتد ذلك عليهم ، فانزل الله الرخصة بعد ذلك : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

ربع

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَآهُمْ تَوَكَّرُ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٣﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤٤﴾ لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٤٥﴾ يَوْمَ يَعْتَبُهُمُ اللَّهُ حَيْمًا فَيَخْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ آلَآئِمَّةٌ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٤٦﴾ اسْتَعْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ وَذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبَ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٤٧﴾

يقول تعالى منكرأ على المنافقين موالاتهم الكفار فى الباطن ، وهم فى نفس الامر لا معهم ولا مع المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لِآ إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَنْ يَسْبُلَ ﴾ [النساء: ١٤٣] . وقال هاهنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى : اليهود ، الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم فى الباطن . ثم قال : ﴿ مَا لَهُمْ تَوَكَّرُ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ أى : هؤلاء المنافقون ، ليسوا فى الحقيقة لا منكم أيها المؤمنون ، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود . ثم قال : ﴿ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يعنى : المنافقين يخلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا ، وهى اليمين الغموس ، ولا سيما فى مثل حالهم اللعين ، عياداً بالله منه ، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا جازوا الرسول حلفوا له بالله أنهم مؤمنون ، وهم فى ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به ؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه ، وإن كان فى نفس الامر مطابقاً ؛ ولهذا شهد الله بكذبهم فى إيمانهم وشهادتهم لذلك .

ثم قال : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الاليم على أعمالهم السيئة ، وهى موالات الكافرين ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : اظهروا الإيمان وابطنوا الكفر ، واتقوا بالايان الكاذبة ، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاعتبر بهم ، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أى : فى مقابلة ما امتنوا من الحلف باسم الله العظيم فى الايمان الكاذبة الحائثة .

ثم قال : ﴿ لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى : لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم ،

﴿ أَوْلَيْكَ اصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَحْشُرُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أى : يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا ينادر منهم أحداً ، ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أى : يحلفون بالله ، عز وجل ، أنهم كانوا على الهدى والاستقامة ، كما كانوا يحلفون للناس فى الدنيا ؛ لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس ، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أى : حلفهم ذلك لربهم ، عز وجل .

ثم قال منكرأ عليهم حسابهم : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ فاكد الخبر عنهم بالكذب . عن سعيد بن جبیر ؛ أن ابن عباس حدثه : أن النبى ﷺ كان فى ظل حجرة من حجّره ، وعنده نفر من المسلمين قد كان يقلص عنهم الظل ، قال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعينى شيطان ، فإذا أتاكم فلا تكلموه » . فجاء رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه ، فقال : « علام تشتمنى أنت وفلان وفلان ؟ » - نفر دعاهم بأسمائهم - قال : فانطلق الرجل فدعاهم ، فحلفوا له واعتذروا إليه ، قال : فانزل الله ، عز وجل : ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ . رواه الإمام أحمد وابن جرير بنحوه (١) . إسناده جيد ولم يخرجاه .

وحال هؤلاء كما أخبر تعالى عن المشركين حيث يقول : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ عَاقِبَةٌ إِنَّ الشِّرْكَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ مَن كَفَرَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الانعام: ٢٣، ٢٤] . ثم قال : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ أى : استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله ، عز وجل ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ؛ ولهذا روى أبو داود عن أبى الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو ، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليك بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب القاصية » . قال رائدة : قال السائب : يعنى الصلاة فى الجماعة (٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ أَوْلَيْكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ يعنى : الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ هُمْ أَوْلَيْكَ فِي الْأَذْلَلِينَ ﴾ ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَخْلِيكَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ﴿ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أَوْلَيْكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنَّا وَيَدَّيْظُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أَوْلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين للمحادين لله ورسوله ، يعنى : الذى هم فى حدِّ والشرع فى حدِّ ، أى : مجانبون للحق مشاقون له ، هم فى ناحية والهدى فى ناحية ، ﴿ أَوْلَيْكَ فِي الْأَذْلَلِينَ ﴾ أى : فى الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب ، الأذلين فى الدنيا والآخرة . ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَخْلِيَنَّ أَنَا وَرَسُولِي ﴾

(١) المسند (٢١٤٧) وقال الشيخ أحمد شاكر « إسناده صحيح » وابن جرير فى الضعيف (١٧/٢٨) .

(٢) أبو داود (٥٤٧) ، وصححه الألبانى .

أى: قد حكم وكتب فى كتابه الاول وَقَدَّرَهُ الَّذِى لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ ، وَلَا يَبْدُلُ بَأَنَّ النَّصْرَةَ لَهُ وَلِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢] .
وقال هاهنا : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبِينَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى : كتب القوى العزيز أنه الغالب لأعدائه .
وهذا قدر محكم وأمر مبرم، أن العاقبة والنصرة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ أى : لا يوادون المحادين ولو كانوا من الاقربين، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتْلُوا مِنْهُمْ تِلْقَاءَ وَيْحِكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ الآية [آل عمران: ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] . وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلى آخرها فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ، حين قتل أباه يوم بدر ؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب حين جعل الامر شورى بعده فى أولئك الستة : « ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته » .

وقيل فى قوله: ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾: نزلت فى أبى عبيدة ، قتل أباه يوم بدر ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾: فى الصديق ، هم يومئذ يقتل ابنه عبد الرحمن ، ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾: فى مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾: فى عمر ، قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفى حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث ، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ ، والله اعلم . قلت : ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين فى أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يفاذوا ، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله أن يهديهم . وقال عمر: لا أرى ما رأى يا رسول الله ، هل تمكنى من فلان - قريب لعمر - فأقتله ، وتمكن علياً من عقيل ، وتمكن فلاناً من فلان ، ليعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هودة للمشركين القصة بكاملها .

وقوله : ﴿ أَوْلَيْكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أى: من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه ، فهذا ممن كتب الله فى قلبه الإيمان ، أى: كتب له السعادة وقررها فى قلبه ورين الإيمان فى بصيرته . وقال السدى : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ : جعل فى قلوبهم الإيمان . وقال ابن عباس : ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أى : قواهم . وقوله : ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : كل هذا تقدم تفسيره غير مرة . وفى قوله : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : سر بديع ، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر فى الله عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والغور العظيم ، والفضل العميم . وقوله: ﴿ أَوْلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ أى: هؤلاء حزب الله ، أى: عباد الله وأهل كرامته ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ : تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم فى الدنيا والآخرة ، فى مقابلة ما أخبر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان . ثم قال: ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .